

Imam Al- San'ani's Stance on The Issue of Divorce During Menstruation: An analytical Jurisprudential Study in Light of the Book Subul Al-Salam

[10.35781/1637-000-143-007](https://doi.org/10.35781/1637-000-143-007)

الباحث/ حسين بن ظافر بن سعيد القحطاني*

*باحث في مرحلة الدكتوراه - قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة
كلية الشريعة وأصول الدين - جامعة الملك خالد

ملخص البحث:

وتتم معالجة هذه الإشكالية من خلال دراسة ثلاثية الأبعاد: تأصيل المفهوم ونشأته وتطوره، تحليل آليات توظيفه في الدراسات الاستشرافية للنصوص الإسلامية، ثم نقد هذا التوظيف وبيان انزياحاته المنهجية والمعرفية.

ويعتمد البحث في مقارنته على منهج تحليلي نقدي، يستند إلى قراءة تاريخية للفيلولوجيا، ومقارنة تطبيقاتها في السياقات الدينية المختلفة، مع استحضار البعد الفلسفي والمعرفي في تحليل خلفياتها.

ويخلص البحث إلى أن الفيلولوجيا، -على الرغم من أصولها العلمية-، قد خضعت لإعادة توجيه وظيفي جعلها أداة مركزية في مشروع الهيمنة المعرفية، وهو ما يقتضي تفكيك هذا التحول وبيان آثاره على فهم النصوص وتفسيرها.

الكلمات المفتاحية: الفيلولوجيا -
المستشرقون - مناهج البحث - الإسلام -
إيديولوجيا.

يتناول هذا البحث المسار التاريخي للفيلولوجيا، باعتبارها منهجاً بحثياً نشأ في سياقات علمية، ثم ما لبث أن تحول تدريجياً إلى أداة توظيف إيديولوجي، لا سيما في الحقل الاستشرافي. وينطلق البحث من إشكالية مركزية مفادها: كيف انتقل المنهج الفيلولوجي من كونه أداة علمية لتحليل النصوص إلى وسيلة تُسهم في إعادة تأويل النصوص الدينية، وبخاصة الإسلامية، ضمن مشروع معرفي ذي خلفيات فكرية وإيديولوجية؟

ويهدف إلى دراسة المنهج الفيلولوجي من حيث مفهومه ونشأته وتطوره التاريخي، وتحليل كيفية توظيفه في الدراسات الاستشرافية للنصوص الإسلامية في سياقاتها التاريخية والثقافية، مع إبراز الشخصيات المؤثرة في هذا التوظيف، ثم تقديم قراءة نقدية علمية تُبرز مدى سلامة هذا التوظيف وصلاحيته المنهجية والمعرفية في التعامل مع النصوص الإسلامية وخصوصياتها.

Philology in Its Historical Context From a Research Method to an Ideological Tool

Hussain Dhafir Saeed Al-Qahtani*

*A PhD Researcher – Department of Creed and
Contemporary Doctrines – King Khalid University

Abstract

This study examines the historical trajectory of philology as a research methodology that initially emerged within scientific contexts, before gradually evolving into an instrument of ideological utilization, particularly within the field of Orientalism. The research is driven by a central question: how did the philological method shift from being a scientific tool for textual analysis to a means of reinterpreting religious—especially Islamic—texts within an epistemological project shaped by ideological and intellectual underpinnings?

The study aims to explore the philological method by tracing its conceptual foundations, origins, and historical development; analyzing its employment in Orientalist studies of Islamic texts within their broader historical and cultural contexts; and highlighting key figures who influenced this deployment. Furthermore, it offers a critical assessment of the validity and epistemological adequacy of this application in the study of Islam and its texts.

The research addresses this problematic through a tripartite

structure: first, by establishing the origins and evolution of the concept; second, by examining the mechanisms of its application in Orientalist discourse; and third, by critiquing its methodological and epistemological deviations.

Methodologically, the study adopts a critical-analytical approach grounded in a historical reading of philology, comparative analysis of its applications across various religious contexts, and a philosophical and epistemological interrogation of its foundational assumptions.

The research concludes that, despite its scientific origins, philology has undergone a functional redirection, becoming a central tool in the project of epistemic domination. This necessitates a deconstruction of such transformation and a critical examination of its impact on the understanding and interpretation of religious texts.

Keywords: Philology – Orientalists – Research Methodologies – Islam – Ideology

المقدمة

شهدت العلوم الإنسانية في السياق الأوروبي منذ العصور الحديثة تطوراً نوعياً في أدواتها ومناهجها، ومن بين تلك العلوم علم الفيلولوجيا، الذي يُعنى بدراسة النصوص من حيث اللغة والتاريخ والمعنى في ضوء سياقاتها الزمنية والثقافية. وقد نشأت الفيلولوجيا بوصفها علماً مستقلاً ارتبط أساساً بتحليل التراث الكلاسيكي، غير أن أدواتها، وخاصة المنهج الفيلولوجي القائم على التفكيك اللغوي والتأويل التاريخي، اكتسبت لاحقاً حضوراً واسعاً في دراسة النصوص الدينية والفكرية. وقد أدى هذا البعد التأويلي وتركيزه على البنية اللغوية التاريخية إلى إثارة جدل منهجي واسع حول حدوده الفيلولوجية ووظائفه المعرفية، ومدى صلاحيته في التعامل مع النصوص المقدسة.

غير أن هذا المنهج -وعلى الرغم من أصله العلمي-؛ لم يبق في دائرته المعرفية البحتة، بل خضع لتحولات في بنيته ووظيفته، إذ بات يُستثمر في سياقات إيديولوجية، لاسيما ضمن مشروع الدراسات الاستشراقية، الذي استهدف دراسة النصوص الدينية الإسلامية، وفي مقدمتها القرآن الكريم، بآليات تقوم على نزع القداسة، وتأويل النصوص وفق فرضيات تاريخية.

من هذا المنطلق؛ يتناول هذا البحث المنهج الفيلولوجي منذ نشأته، ثم تطوره، متتبّعاً دوره في دراسة اللغات والنصوص القديمة، ثم تحوله إلى أداة رئيسية في النقد التاريخي للنصوص الدينية وتطوره، كما يناقش كيفية تأثر المستشرقين بالمناهج الفكرية التي أفرزها عصر التنوير الأوروبي، إذ انطلقوا من خلفياتهم الثقافية الغربية في تبني منهجيات نشأت في بيئتهم الفكرية، وسعوا إلى تطبيقها على التراث الإسلامي. ويسلط الضوء على إشكالات هذا التوظيف ومدى توافق هذه المناهج مع خصوصية النصوص الإسلامية.

إشكالية البحث:

تواجه الدراسات المتعلقة بالاستشراق وتاريخ المناهج الحديثة إشكالاتاً منهجية محورية يتمثل في طبيعة حضور المنهج الفيلولوجي داخل الخطابات الغربية، وكيف انتقل من مجاله الأصلي المرتبط بدراسة اللغات والنصوص القديمة إلى أن يصبح أداة مركزية في تحليل النصوص الإسلامية ضمن سياقات الاستشراق. ومن هنا، تتبثق الإشكالية الرئيسية لهذا البحث في السؤال الآتي:

ما مدى مشروعية ووجاهة توظيف المنهج الفيلولوجي في الدراسات الاستشراقية المتعلقة بالإسلام ونصوصه، وما الإشكالات المنهجية والمعرفية التي يثيرها هذا التوظيف؟ ويتفرع عن هذه الإشكالية ما يلي:

- ما المنهج الفيلولوجي، وكيف نشأ وتطور؟
- كيف استثمر المستشرقون المنهج الفيلولوجي في دراسة الإسلام ونصوصه؟
- ما أهم الإشكالات المنهجية والمعرفية التي تثار حول توظيف المنهج الفيلولوجي في الدراسات الاستشراقية؟

أهمية البحث:

- تتبع أهمية هذا البحث من طبيعة الموضوع الذي يتناول أحد المناهج الغربية الأكثر تأثيراً في تكوين الرؤية الاستشراقية للإسلام، وهو المنهج الفيلولوجي. وتتجلى هذه الأهمية في عدة جوانب:
- إبراز الخلفية المعرفية والمنهجية للفيلولوجيا، بوصفها أحد العلوم التي أسهمت في تشكيل طرائق قراءة النصوص داخل الفكر الغربي.
- تفسير موقع الفيلولوجيا داخل المشروع الاستشراقي، من خلال دراسة كيفية توظيف المستشرقين لهذا المنهج في تحليل النصوص الدينية الإسلامية، مع الوقوف على أبرز الشخصيات التي كان لها دور محوري في نقله وتطبيقه على النص القرآني والنبوي.
- فتح أفق نقدي لدراسة المناهج الوافدة، عبر تقديم قراءة علمية للتوظيف الاستشراقي للفيلولوجيا، وبيان ما يثيره من إشكالات معرفية ومنهجية تتصل بطبيعة النصوص المقدسة في الإسلام.

أهداف البحث:

- معرفة مفهوم المنهج الفيلولوجي ونشأته وتطوره عبر العصور.
- تحليل توظيف المستشرقين للفيلولوجيا في دراسة النصوص الإسلامية، في ضوء السياقات التاريخية والثقافية التي وجهت هذا التوظيف، مع التمثيل بأبرز الشخصيات المؤثرة في مساره.
- تقديم نقد علمي للتوظيف الاستشراقي للفيلولوجيا، ومدى صحة ذلك التوظيف، وصلاحيته لدراسة الإسلام ونصوصه.

منهج البحث:

- يعتمد البحث على توظيف منهجين بحثيين، يسعى الباحث من خلالهما لدراسة تطور المنهج الفيلولوجي من أداة بحثية إلى أداة استشراقية، وذلك وفق الآتي:
- **المنهج الاستقرائي:** في دراسة نشأة الفيلولوجيا وتطورها عبر العصور، مع التركيز على كيفية انتقالها من دراسة اللغات القديمة إلى استخدامها في الدراسات الاستشراقية للنصوص الإسلامية.
- **المنهج التحليلي النقدي:** حيث سيتم تحليل كيفية توظيف الفيلولوجيا في تفسير نصوص الوحي، وتقييم تأثير الفكر الغربي في هذه الدراسات. ومن ثم سيتم تقديم نقد تفصيلي لتوظيف الفيلولوجيا في الدراسات الاستشراقية، مع التركيز على الانتقادات التي تطرقت إلى الفهم الغربي للنصوص الدينية، خاصة القرآن الكريم.

الدراسات السابقة:

من الدراسات التي قاربت بعض أبعاد هذا البحث، دراسة محسن فتحي الموسومة بـ "المنهج الفيلولوجي عند المستشرقين: من النقد الكتابي المتعالي إلى الإجراء التدخلي في الدراسات القرآنية"، والتي ركزت على تتبع انتقال الفيلولوجيا من سياقها التوراتي إلى الحقل الإسلامي، من خلال دراسة

تطبيقات المستشرقين، ولا سيما الألمان، على النص القرآني، وبيان الخلفيات المعرفية والمنهجية التي وجهت هذا التوظيف. وقد كشفت الدراسة عن مظاهر من التعسف المنهجي في التعامل مع النص القرآني، مع رصد التأثيرات الفلسفية واللغوية على هذه المقاربات.

وتلتقي هذه الدراسة مع البحث الحالي في الانشغال بنقد التوظيف الاستشراقي للفيلولوجيا، إلا أن هناك اختلاف في طبيعة المقاربة من حيث البنية والمنطلق؛ إذ دراستنا هذه لا تركز على التطبيقات بعينها - كما هو الحال عند فتحي-، بل تنصرف إلى مساءلة المنهج ذاته، عبر تحليل سياقه التاريخي، ورصد تحولاته المفهومية والفلسفية، وبيان موقعه ضمن منظومة الهيمنة المعرفية الغربية الحديثة. ومن خلال هذا المسار؛ يطمح البحث الحالي إلى الكشف عن المقدمات الإيديولوجية الكامنة خلف الممارسة الفيلولوجية في المجال الإسلامي، وتفكيك أسسها النظرية، مع السعي إلى التأسيس لمقاربة بديلة تستند إلى خصوصيات النص الإسلامي وسياقاته المعرفية الذاتية.

وبحسب ما أمكن الوقوف عليه؛ فإن دراسة محسن فتحي تُعدّ الوحيدة التي لامست هذا الموضوع بقدر من التخصص، غير أن هذا البحث الحالي يسعى إلى تجاوزه من حيث العمق النظري والاتساع الفلسفي، ما يجعله إسهاماً تأسيسياً يُضاف إلى حقل نقد الفيلولوجيا في السياق الاستشراقي.

تبويب البحث:

تمهيد: في مفهوم الاستشراق وأبرز مناهجه.

المبحث الأول: المنهج الفيلولوجي الاستشراقي؛ المفهوم، والنشأة، والتطور:

المطلب الأول: مفهوم الفيلولوجيا.

المطلب الثاني: نشأة المنهج الفيلولوجي.

المطلب الثالث: تطور المنهج الفيلولوجي.

المبحث الثاني: التوظيف الاستشراقي للمنهج الفيلولوجي:

المطلب الأول: من نقد نصوص الكتاب المقدس إلى دراسة نصوص الإسلام.

المطلب الثاني: الشخصيات الرئيسية.

المبحث الثالث: اشكالات منهجية ومعرفية حول نهج التوظيف الاستشراقي للمنهج الفيلولوجي في دراسة

النصوص الإسلامية.

الخاتمة: وتتضمن؛ النتائج، والتوصيات.

تمهيد: في مفهوم الاستشراق وأبرز مناهجه.

أولاً: مفهوم الاستشراق:

1- الاستشراق في اللغة:

لم ترد كلمة "الاستشراق" المشتقة من مادة "ش ر ق" في أي من المعاجم العربية القديمة، فالمصطلح إذن "مولد عصري"⁽¹⁾، وإنما وردت الكلمة في المعاجم القديمة دلالةً على لفظ (شَرْق) والذي يدل على الإشراق والإضاءة والجهة الجغرافية، ومن ذلك ما ورد لدى ابن فارس في معجمه؛ قول: (شَرْق)؛ (الشَّيْنُ، والرَّاءُ، والقَافُ) أَصْلٌ وَاحِدٌ يَدُلُّ عَلَى إِضَاءَةٍ وَفَتْحٍ. مِنْ ذَلِكَ شَرَقَتِ الشَّمْسُ، إِذَا طَلَعَتْ. وَأَشْرَقَتْ، إِذَا أَضَاءَتْ.⁽²⁾

وقال الراغب الأصفهاني: والمشرق والمغرب إذا قيلاً بالإفراد؛ فإشارة إلى ناحيتي الشرق والمغرب، وإذا قيلاً بلفظ الجمع؛ فاعتباراً بمطلع كل يوم ومغربة، أو بمطلع كل فصل ومغربة قال تعالى: {مَكَانًا شَرْقِيًّا} [مريم: 16] أي: ناحية الشرق.⁽³⁾

ووردت كلمة "الاستشراق" في معجم اللغة العربية المعاصرة بتعريفات ومشتقات منها:

أَشْرَقَ يُشْرِقُ، إِشْرَاقًا، فَهُوَ مُشْرِقٌ، والمفعول مُشْرَقٌ (للمتعدّي).

استشرقَ يستشرق، استشرقاً؛ فَهُوَ مُسْتَشْرِقٌ.

واستشرق الأوربيُّ: اهتمَّ بالشرق والدراسات الشرقيّة، "مستشرق فرنسيّ": أديب فرنسيّ يهتمّ بدراسة تراث الشَّرْق وحضارته ولغاته.⁽⁴⁾

2- الاستشراق اصطلاحاً:

عُرف الاستشراق بتعريفات عدة، بعضها يتناول الاستشراق من حيث موضوع دراساته أو أسلوبه في تلك الدراسات، أو منطلق البحث أو غايته، أو ارتباطاته الدينية والسياسية وحركته، وبعضها الآخر يتناول المستشرقين أشخاصاً وفئات، وأبرز ما قيل في تعريفه:

- عرفه محمود زقزوق بأنه: "الدراسات الغربية المتعلقة بالشرق الإسلامي في لغاته وآدابه وتاريخه وعقائده وتشريعاته وحضارته بوجه عام".⁽⁵⁾

(1) أحمد رضا، معجم متن اللغة، (دار مكتبة الحياة، بيروت، 1377-1380هـ)، مادة (شرق)، (310/3).

(2) ابن فارس القزويني، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبدالسلام هارون، (دار الفكر، 1399هـ)، مادة (شرق)، (3/ 264).

(3) الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، تحقيق: صفوان الداودي، ط: 1، (دار القلم- الدار الشامية، دمشق -بيروت، 1412هـ)، ص: 451.

(4) أحمد مختار عبد الحميد، معجم اللغة العربية المعاصرة، (عالم الكتب، 2008م)، مادة: "ش ر ق"، (193/2-194).

(5) محمود زقزوق، الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، (دار المعارف، القاهرة، 1997م)، ص: 18.

- عرفه المستشرق الألماني "رودي بارت" بقوله: الاستشراق هو علم الشرق أو علم العالم الشرقي.⁽¹⁾
 - وقال سمائلوفتش: "كلمتي "الاستشراق" و"المستشرق"، علميا حديثا العهد نسبيا في الإنجليزية والفرنسية، إذ تبنتها الأولى حوالى عام 1779م، وتبنتها الأخرى حوالى عام 1799م، واعترفت بها الأكاديمية الفرنسية المشهورة بالحيدة في إدخال الكلمات الجديدة إلى اللغة الفرنسية فأدخلتها إلى معجمها المشهور عام 1838 م".⁽²⁾
 - وعُرف الاستشراق في الموسوعة الميسرة بأنه: "ذلك التيار الفكري الذي تمثل في الدراسات المختلفة عن الشرق الإسلامي والتي شملت حضارته وأديانه، وأدابه ولغاته، وثقافته، ولقد أسهم هذا التيار في صياغة التصورات الغربية عن العلم الإسلامي معبراً عن الخلفية للصراع الحضاري بينهما".⁽³⁾
- وهذا التعبير الأخير هو أوسع التعريفات وأشملها -من وجهة نظر الباحث-.

ثانياً: أبرز المناهج الاستشراقية:

ينكر معظم المستشرقين نبوة الرسول ﷺ والوحي الإلهي تبعاً لذلك، مما يدفعهم إلى تفسير الإسلام وفق رؤى لا تؤمن بما يتجاوز الطبيعة والواقع، لا باعتبارها عقيدة وشريعة مستقلة. ويسعون لإرجاع نشأة الإسلام إلى تأثيرات داخلية وخارجية، مستخدمين مناهج علمية حديثة متنوعة تهدف إلى ليّ النصوص وتحليلها وفق فرضيات مسبقة، سعوا إلى تأكيدها منذ البداية، مما يطغى على دراساتهم بطابع غير موضوعي. وأبرز تلك المناهج التي استعملوها:

1- المنهج الفيلولوجي:

وهو ما سنفصل فيه خلال مباحث الدراسة.

2- المنهج المادي:

وهو المنهج الذي يجعل للعامل الاقتصادي أهمية قصوى في تفسير الواقعة التاريخية، وقد برز هذا المنهج بعد ظهور التيارات الماركسية عقب نجاح الثورة الشيوعية في روسيا سنة 1917م، واتسع المنهج المادي التاريخي ليحتكم إليه بعض المستشرقين في تحليلاتهم لتاريخ الإسلام⁽⁴⁾، كالمستشرق الألماني

(1) رودي بارت، الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية، ترجمة: مصطفى ماهر، (المكتب القومي للترجمة، القاهرة، 2011م)، ص: 11.

(2) أحمد سمائلوفتش، فلسفة الاستشراق، ط:د، (دار الفكر العربي، القاهرة، 1998م)، ص: 26.

(3) الندوة العالمية للشباب المسلم، الموسوعة الميسرة للأديان والمذاهب المعاصرة، ط: 2، (1409 هـ، الرياض)، ص: 33.

(4) عبدالله محمد النعيم، الاستشراق في السيرة النبوية، ط: 1، (المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 1997م)، ص: 34.

"كارل بروكلمان"⁽¹⁾، الذي جعل من العامل الاقتصادي أهمية في تفسير الغزوات الإسلامية، حيث يرى أن النبي ﷺ لم يجرؤ على إعلان شرعية الحرب ضد المشركين وتوزيع الغنائم في الشهر الحرام إلا في آيات متأخرة، بعد أن كانت الغنائم العظيمة قد أثارت مطامعه إثارة كافية، أي: أن العامل الاقتصادي كان هو المحرك والمبرر في نفس الوقت الغزوات النبي⁽²⁾.

3- المنهج الانتقائي:

عرف عن كثير من المستشرقين في كتاباتهم أنهم ينتقون بعض الأحداث والقضايا ويكتبون عنها ويهملون غيرها. وقد تنوعت الانتقائية في منهج البحث عند المستشرقين لتشمل ثلاثة محاور:

الأول: المصادر؛ حيث مارس كثير من المستشرقين الانتقائية في اختيارهم للمصادر دون منهج معين، وقد نتج عن ذلك تقديم كثير منهم لمصادر ثانوية على مصادر أولية، ففي مجال السيرة النبوية - مثلاً - نجد أن المستشرق "مونجمري وات" يقدم مغازي الواقدي على المصادر الحديثة كصحيح البخاري ومسلم، مما يكشف عن انتقائية منهجية تخدم رؤية تفسيرية مسبقة، دون اعتماد موازين التحقيق الحديثي أو التوثيق التاريخي المعتمد في المدرسة الإسلامية.⁽³⁾

الثاني: الاستدلال: حيث نجد الانتقائية في اختيار الأدلة وترتيبها ظاهراً في كتابات كثير من المستشرقين، فكثيراً ما يقدم هؤلاء نصوصاً شرعية على نصوص الكتاب والسنة.

الثالث: المسائل والآراء: حيث ينتقي كثير من المستشرقين مسائل معينة ومحدودة لجعلها موضع البحث لغرض يريد أن يصل إليه، كطرحهم لرحلة النبي ﷺ للشام في محاولة لإثبات نقائه ببحري الراهب، ومقصدهم من ذلك: إثبات أن النبي ﷺ كان قد تعلم عقائد النصراني من بحري فهو إما تابع لهم أو متأثر بهم.⁽⁴⁾

4- المنهج الاسقاطي:

ويتمثل هذا المنهج في خضوع الباحث إلى هواه، وعدم استطاعته التخلص من الانطباعات التي تركتها لديه بيئته الثقافية المعنية، وعدم تحرره من الأحكام المسبقة التي يكونها على موضوع بحثه

(1) كارل بروكلمان (1868-1956م): مستشرق ألماني، كان استاذ الفيلولوجيا بجامعة روستوك ثم جامعة برسلو، ومن أشهر تلاميذ تيودور نولدكه، ومن أشهر مؤلفاته: "تاريخ الشعوب الإسلامية"، و"تاريخ الأدب العربي". عبدالرحمن بدوي، موسوعة المستشرقين، ط: 4، (المؤسسة العربية لدراسة والنشر، بيروت، 2003م)، ص: 98-105.

(2) كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة: نبيه أمين فارس، أمين البعلبكي، ط: 5، (دار العلم للملايين، بيروت، 1968م)، ص: 49-53.

(3) مونجمري وات، محمد في المدينة، ترجمة: شعبان بركات، (المطبعة العصرية، بيروت)، ص: 7، 9، 13، 15، 16، 17، 21، 24، 31، 47. (وهي صفحات للتمثيل لا للحصر).

(4) رياض حمد العمري، مناهج المستشرقين ومواقفهم من النبي ﷺ، ط: 1، (مركز تأصيل الدراسات والبحوث، جدة)، ص: 508-510.

سواء أكانت هذه الأحكام عقلية أم انفعالية. ولا يرى الباحث إلا صورته الذهنية دون غيرها من الصور الفكرية التي ربما تخالف أحكامه المسبقة ويحاول جاهداً إخضاع جميع الصور الأخرى إلى ما ارتضاه لنفسه حتى وإن جانبت الموضوعية العلمية.⁽¹⁾

وقد طبق المستشرقون المنهج الإسقاطي على الدراسات الإسلامية، ووصلوا بتطبيقه إلى أحكام تعسفية لا صلة لها بالتحليل العلمي السليم، وطوعوا هذه الصور الذهنية الكامنة في عقولهم سلباً وإيجاباً لتفسير التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية. وبما أن هذا المنهج يخضع لهوى الباحث وأحكامه المسبقة؛ فإن النتائج المرجوة منه لا تكون صائبة بل جائرة ومنافية للحيداد العلمي الصحيح⁽²⁾. وممن طبق هذا المنهج؛ المستشرق "بروكلمان" والذي أسقط فكرة "تطور الأديان وتدرجها" على الإسلام، حيث كان يرى "أن الوحداية التجريدية التي كانت إلى حد بعيد أساس قوة الإسلام في غزو القلوب واكتساب الأتباع لم تنشأ إلا تدريجياً، ويبدو هذا -بزعمه- في نزوع النبي -صلى الله عليه وسلم- إلى الاعتراف بالآلهة المكية الرئيسية شفعاء عند الله، وفيما كان المفهوم الإلهي يتبلور في وجدان محمد كانت بعض الصفات التشبيهية تجد سبيلها إلى هذا المفهوم"⁽³⁾.

وبعد هذا العرض الموجز لأهم المناهج الاستشراقية؛ يتضح أنها تتسم بانحيازات فكرية وأيديولوجية تتعارض مع حقيقة الإسلام، حيث انطلقت من فرضيات مسبقة أسهمت في تقديم قراءات مشوّهة أفضت إلى تصورات مغلوطة عن نشأته وتاريخه وأصالته. وقد تحكمت في هذه القراءات افتراضات ذاتية لم تراع طبيعة النصوص الإسلامية ولا سياقاتها التاريخية. ومن هنا، فإن نقد هذه المناهج وتقييمها وفق أسس علمية رصينة يظل ضرورة ملحة لضمان فهم أكثر موضوعية وإنصافاً للإسلام ونصوصه.

(1) سامي سالم الحاج، نقد الخطاب الاستشراقي الظاهرة الاستشراقية وأثرها في الدراسات الإسلامية، ط: 1، (دار المدار الإسلامي، ليبيا، 2002م)، (169/1).

(2) المرجع نفسه، (169-170/1).

(3) كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، ص: 70.

المبحث الأول

المنهج الفيلولوجي: المفهوم، والنشأة، والتطور

المطلب الأول: مفهوم الفيلولوجيا:

"الفيلولوجيا" مصطلح غربي المنشأ، وهو مصطلح شبه حائر في الدراسات اللغوية الأوروبية، ذلك أنه يستعمل في أكثر من معنى؛ فهو مرة يقصد منه دراسة الكلمات من حيث قواعدها وقوانينها ونقد النصوص الأدبية القديمة، ومرة أخرى يراد به معنى أوسع من دراسة اللغة نفسها، وهو دراسة الحياة العقلية من جميع وجوهها، أو بعبارة أخرى: النشاط العقلي لأبناء اللغة الواحدة، ومرة ثالثة يستعمل مرادفاً لـ "علم اللغة linguistics" ⁽¹⁾ وفي أخرى يكون ترجمةً للمصطلح العربي "فقه اللغة"، لذلك؛ فإن التعريف به من المشكلات التي تواجه الباحث. ⁽²⁾

واختصاراً للشرح الذي سيطول لتوضيحه؛ يمكن أن نختصر ذلك بإيراد مفهومه لدى المستشرقين، واستعماله له، فنقول: إن جمهور المستشرقين ومعظم علماء الغرب حديثاً يقتصرون في استعماله على المباحث التاريخية التي تتناول اللغة ونشأتها وتطورها، والعوامل التي أدت إلى ارتقائها ونهوضها، وتطورها، والبيئة التي نشأت فيها، وعلى المنهج المقارن الذي يقوم بدوره بالمقارنة بين اللغات. كل ذلك للوصول إلى حقائق أخرى زعموها وتكلفوا إثباتها من خلال هذا المنهج، كدعوى تتلمذ الرسول ﷺ على بعض الرهبان والأخبار، وإفادته من مختلف الأديان والحضارات. ⁽³⁾

المطلب الثاني: نشأة المنهج الفيلولوجي:

حين طلع فجر النهضة على أوروبا لم تكن الدعائم التي قامت عليها هذه النهضة إلا ما تركته الحضارتان الأوروبيتان "حضارة الإغريق" و"حضارة الرومان"، وكان الأوروبيون في ذلك الوقت يرون أنفسهم الورثة الشرعيين لتراث هاتين الحضارتين، بل كانوا يرون في وجودهم نفس استمراراً لوجود قدماء الإغريق والرومان.

ومن ثم لم تكن نهضتهم حدثاً منقطع الجذور، منبثاً عن الماضي، بل كان تراث اليونان يتمثل في فلسفتهم وفي دراساتهم التي كان أشهرها ما تركته مدرسة الإسكندرية ⁽⁴⁾، كما كان تراث

(1) عبدالعزيز أحمد علام وعبدالله ربيع محمود، في فقه اللغة، ط: 1، (مكتبة الرشد، الرياض، 1425هـ)، ص: 23.

(2) Websters New Collegiate Dictionary first printing 1973, letter: (P)

(3) مقدمة تحقيق كتاب: أبو منصور عبد الملك الثعالبي، فقه اللغة وأسرار العربية، تحقيق: يحيى مراد، ط: 1، (المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، 2009م)، ص: 6-11، (بتصرف).

(4) تعد مدرسة الإسكندرية الوريث الفعلي للثقافة والفكر اليونانيين، وقد تربى كبار مفكري المسيحية في أحضان هذه المدرسة Alan. G. Hauser and وتأثروا بالفلسفة اليونانية لذلك حاولوا ربط الكتاب المقدس بهذه الفلسفة، وجعله يتوافق معها ولا يناقضها، Duane F. Watson: A History of Biblical Interpretation , vol (1) wm.p.Eerdmans publishing 2003. P: 334 – 336

الرومان يتمثل في القانون والإدارة، وفي الدراسات اللغوية المكتوبة باللاتينية التي ما فتئت حتى ذلك الوقت -عصر النهضة- لغة الدين والثقافة والحضارة في أوروبا، ومادامت هاتان اللغتان بهذه الأهمية فلا جرم أن الهمم انصرفت إلى إحياء دراستهما، ونقد ما جاء بهما من نصوص قديمة⁽¹⁾.

من هنا برزت الحاجة إلى علم يسعى إلى الكشف عن كل ما تتضمنه هذه الوثيقة أو النص اللذين وصلنا في نسخ كثيرة وأزمنة تحرير مختلفة، وفي بعض الأحيان في نسخة فريدة، قد تكون أصلية، وقد لا تكون علم يبني على أسس متينة، من شأنها بيان كيفية التعامل مع النص والوثيقة في جميع الحالات.

واحتاج المتخصصون بالعلوم الإنسانية المختلفة إلى تملك هذا العلم وتعلمه، خاصة أن مدار العلوم الإنسانية في معظمها على النص المكتوب، سواء في التاريخ أم الدين أم الفلسفة بمستويات تختلف من علم إلى آخر، لكن هذه الحاجة كانت كبيرة لدى المؤرخين واللاهوتيين، لكون الوثيقة هي أساس عمل المؤرخ ومعتمده في تقرير الوقائع، ولكون النص الديني المكتوب هو الأساس الذي تقوم عليه العقيدة والشريعة والأخلاق.

واحتاج المؤرخ إلى علوم مساعدة تمكنه من التحقق من صحة الشهادات الواردة في الوثيقة، والتأكد من هوية صاحبها، ومن زمن كتابتها،⁽²⁾ وبهذا أصبح علم الفيلولوجيا من العلوم التي لا غنى عنها لفحص وتحقيق وشرح الوثائق التراثية، فكان لابد من وجوده كعلم أساسي، تركز عليه سائر العلوم الأدبية، ويكون بمثابة الفاحص المدقق لأصولها ومراجعها النصية المرتبطة بالحضارتين "اللاتينية" و"الإغريقية".

ومن خلال ما سبق؛ فقد ارتبط علم الفيلولوجيا أولاً بالاسكندرية، ولكن بشكل بدائي ودون أن يعرف هذا المصطلح -فيلولوجيا- آنذاك، ولا يمكننا اعتبار ذلك بداية فعلية لعلم الفيلولوجيا، ثم استمرت الفيلولوجيا بهذا المستوى البدائي حتى عصر النهضة الأوروبية والذي بدأ فيه الاهتمام الواسع بنصوص وآثار الحضارتين "الرومانية" و"الإغريقية"، ذلك أنهما خلفتا آثاراً مادية ونصوصاً مكتوبة، وقبل استثمار هذه النصوص واستعمالها لابد من التأكد من قيمتها، وصحتها، ونسبتها إلى مؤلفيها، وتقويتها من الزوائد والتصحيح، وهو الدور المنوط بعلم الفيلولوجيا.

(1) تمام حسان، الأصول دراسة إبستمولوجية للفكر اللغوي عند العرب "النحو، فقه اللغة، البلاغة"، ط د، (أميرة للطباعة، القاهرة، 2000م)، ص: 235.

(2) يوسف الكلام، تاريخ وعقائد الكتاب المقدس بين إشكالية التقنين والتقليد "دراسة في التاريخ النقدي للكتاب المقدس في الغرب المسيحي"، ط: 1، (صفحات للدراسة والنشر، دمشق، 2009م)، ص: 24.

وبقي تركيز الدراسات الفيلولوجية منذ نشأتها - في عصر النهضة - على دراسة الإنتاجات الأدبية للغتين "الإغريقية" و"اللاتينية" إلى نهاية القرن السادس عشر، لينتقل إلى دراسة أعمال أقل قدماً⁽¹⁾، فبدأت حينها الدراسات النقدية تطول الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد، بدءاً من حركة الإصلاح البروتستانتي ومروراً بنقد الفيلسوف الهولندي "باروخ سبينوزا" (1632 - 1677م) في كتابه: (رسالة في اللاهوت والسياسة)، ثم عرف الأوروبيون اللغة السنسكريتية، فما فتئت الفيلولوجيا أن تطورت وتآلفت وتسملت إلى العلوم الحديثة، فتزاحم إليها الفلاسفة والمفكرون والمستشرقون.

المطلب الثالث: تطور المنهج الفيلولوجي:

بعد بقاء تركيز الفيلولوجيا حول دراسة الإنتاجات الأدبية للغتين "الإغريقية" و"اللاتينية" إلى نهاية القرن السادس عشر؛ أخذ منهج الفيلولوجيا في التطور بعد أن طالعت دراساته نصوص الكتاب المقدس.

ثم قفز قفزته الكبرى بعد أن عرف الأوروبيون اللغة السنسكريتية، والمقال الذي كتبه عنها السير وليام جونز (1746-1794) مبيناً أوجه الشبه بينها وبين اللغات الإغريقية واللاتينية والقوطية، معلناً عن اعتقاده أن هذه اللغات جميعاً انحدرت من أصل واحد، عندئذ فطن اللغويون إلى وجود علاقات تركيبية بين أفراد فصيلة من اللغات أطلقوا عليها اسم "اللغات الهندية الأوروبية"، فأوضحوا الصلة فيما بينها بواسطة دراسات مقارنة أطلقوا عليها اسم "الفيلولوجيا" مرتبطاً بمفهوم اللغات القديمة، واكتسب ظلاً جديداً بإضافة فكرة المقارنة إليه.

ولقد كان هذا الظل الجديد - ظل فكرة المقارنة - هو الطريق الخلفي الذي تسملت منه "الفيلولوجيا" إلى الدراسات الحديثة وإلى دراسة اللغات الحديثة فيما بعد. كانت بداية المقارنة على يد اللغوي المجري yarmathi الذي أجرى مقارنة بين لغات المجموعة الفنلندية الأوربية Fino - grian التي تنتمي إليها لغته القومية اللغة المجرية، وتلاه غيره من المهتمين بالفصيلة الهندية الأوروبية. وفي نهاية عصر النهضة أبدى الأوروبيون بعض الاهتمام باللغتين العربية والعبرية لإنشاء مقارنات بينهما، وتطور هذا الاهتمام حتى نشأ عنه حقل المقارنات السامية فيما بعد.⁽²⁾

ثم توسع اللغويون في مدلول "الفيلولوجيا" - دون أن يجردوه من ارتباطه باللغات والدراسات القديمة -، فأطلقوا هذا المصطلح على نوعين من أنواع النشاط والتحقيق العلمي هما:
أ - فك رموز الكتابات القديمة التي يعثر عليها الباحثون في حقل الآثار مرقومة على الحجارة أو جدران المباني في صورة نصوص بلغات مجهولة أو لغات معلومة ولكن الرموز مجهولة، ومن ذلك ما

(1) يوسف الكلام، تاريخ وعقائد الكتاب المقدس، ص: 37.

(2) تمام حسان، الأصول دراسة إستمولوجية للفكر اللغوي عند العرب، ص: 235-236. وفرديناند دي سوسير، محاضرات في علم اللسان العام، ترجمة: عبدالقادر قنيني، (أفريقيا الشرق، 1987م)، ص: 8-13.

كان من فك رموز حجر رشيد وألواح عين الشمرة والنقوش المسمارية وغيرها من النصوص القديمة ولا شك أن قدم هذه النصوص ينسجم مع المعنى الأصلي للفظ "فيلولوجيا"، ومع ارتباطه باللغات القديمة. ب- وأطلق اللفظ كذلك على تحقيق الوثائق والمخطوطات القديمة بغية نشرها والانتفاع بها في النشاط العلمي وفي الدراسات التاريخية والأثرية. ومن هذا النوع أوراق البردي التي عثر عليها في جزيرة فيلا بأسوان وهي تشتمل على نصوص آرامية. ومن ذلك أيضاً ما نعرفه في وقتنا الحاضر من تحقيق المخطوطات وطبعها على نحو ما يقوم به طلاب الدراسات العليا في أقسام اللغة العربية بالجامعات من نشر التراث برسائلهم العلمية.⁽¹⁾

وبقي علم الفيلولوجيا في الاستعمال العام يعني العلوم العالمية، في الآداب تارة، والدراسات العامة في اللغات تارة، وأخرى في دراسة الوثائق المكتوبة وطرق انتقالها، ليظهر أول مرة علم الفيلولوجيا المقارن سنة 1840م.⁽²⁾

ومن جهة أخرى توسعت الدراسات النقدية للكتاب المقدس وخضع للمناهج النقدية نفسها التي خضعت لها النصوص الأدبية الإغريقية اللاتينية، فهو نفسه نص أدبي لاشتماله على ملاحم وأساليب أدبية عديدة؛ إغريقي: لأهمية ترجمته الإغريقية السبعينية (La Septante)⁽³⁾، لاتيني: بترجمته اللاتينية الفولجاتا (La Vulgate)⁽⁴⁾، قديم: لعرضه أحياناً ترجع إلى عشرات القرون قبل الميلاد، ومن المؤلف أيضاً أن يلجأ اللاهوتي والمفسر إلى العلوم والمناهج نفسها المطبقة على هذه النصوص، خصوصاً المنهجين "الفيلولوجي" و"التاريخي" اللذين تميزت بهما دراسة الكتاب المقدس أو النقد التوراتي.⁽⁵⁾

وبعد توسع الكتابات النقدية للنصوص المقدسة اليهودية والنصرانية؛ نتج عن هذا ما يسمى - منذ القرن الثامن عشر الميلادي - بـ "علم نقد الكتاب المقدس"، وقد تفرع هذا العلم - حسب أقسام الكتاب المقدس - إلى علمين، هما: "علم نقد العهد القديم" و"علم نقد العهد الجديد"، واشتهر بشكل

(1) تمام حسان، الأصول دراسة إبستمولوجية للفكر اللغوي عند العرب، ص: 236-237.

(2) يوسف الكلام، تاريخ وعقائد الكتاب المقدس، ص: 38.

(3) هي الترجمة اليونانية المعترف بها عند الكاثوليك، والأرثوذكس، وتعرف أيضاً بالترجمة السكندرية. سلوى ناظم، الترجمة السبعينية للعهد القديم بين الواقع والأسطورة، ط: 1، (دار الآداب، القاهرة، 1988م)، ص: 17.

(4) بدأ جيروم (347م-420م) في إبداء ملاحظاته على أسفار العهد القديم، ثم شرع في ترجمة الكتاب المقدس من اللغة العبرية مباشرة، وسميت هذه الترجمة بالفولجاتا، وهي الترجمة الرسمية للكنيسة الكاثوليكية.

Alan . G. Hauser and Duane F. Watson: op.cit bb355 – 356

(5) يوسف الكلام، تاريخ وعقائد الكتاب المقدس، ص: 25.

خاص داخل إطار علم نقد العهد القديم ما يسمى بـ "علم نقد التوراة" أو "علم نقد الأسفار الخمسة"، كما سمي أيضاً بـ "النقد الأعلى" Higher Criticism⁽¹⁾.

وتطبيقاً لهذه الاتجاهات في دراسة نصوص العهدين القديم والجديد؛ تطور عند المستشرقين ما يمكن تسميته بـ "نقد القرآن الكريم"⁽²⁾، -كما سيكون معنا بتفصيل أكثر في ثانيا المبحث القادم-

واكتمل هذا العلم -الفيلولوجيا- عملياً مع نهاية القرن التاسع عشر، ومن ثم صار الاتجاه الكبير نحو الحدث نصاً ومصدراً، ونحو عملية تفتيت المادة، ما سهل انتشار هذا العلم بين شعب العلوم المختلفة الأخرى، وانبثقت منه مجموعة من العلوم التطبيقية المستقلة، ففي سنة 1880م ميز G. Graber بين الفيلولوجيا الحقيقية المرتبطة بالنص والفيلولوجيا الخالصة، التي تهتم بدراسة وثائق اللغات القديمة، وانبثق بفضل جهود النحويين الجدد علم "لسانيات" مستقل، وتأسس علم "تاريخ الآداب" بمناهجه وإيديولوجيته الخاصة، وانبثق من نقد النصوص علم "الكتابات القديمة" Bibliography وعلم "المخطوطات" Codicology، ومن شرح النصوص انبثق علم "أساليب الكتابة"⁽³⁾.

ولا يخفى أن أهم المصطلحات التي صبغت فيلولوجيا القرن التاسع عشر، وتبلورت في دراسات الكتاب المقدس والآداب اليونانية والرومانية القديمة؛ هي: "النص الأصلي أو الأم ur-text" و "التركيب construction" و "إعادة بناء النص reconstruction"، و "تبني النص في السياق أو الكشف عن السياق المقدر في النص contextualization"، و "الشاهد التاريخي المادي material evidence/document"، و "النص المتلقي textus receptus"، و "النموذج الأصلي vorlage"⁽⁴⁾.

ويقصد علماء دراسات الكتاب المقدس من النص الأصلي؛ نص التوراة والإنجيل كما وضعه مؤلفه قبل أن يعتريه تغيير بعدي؛ أي ما قبل ترجمته السبعينية اليونانية septuaginta و الماسورا العبرية masora⁽⁵⁾، بينما يكون النموذج الأصلي محاولة تحديد أقدم إصدار للكتاب العبري الذي يمكنهم

(1) شريف حامد سالم، نقد العهد القديم دراسة تطبيقية على سفر صموئيل الأول والثاني، ط: 1، (مكتبة مذبولي، القاهرة، 2011م)، ص: 132.

(2) محمد خليفة حسن، دراسة القرآن عند المستشرقين في ضوء نقد الكتاب المقدس، ص: 6-7.

(3) يوسف الكلام، تاريخ وعقائد الكتاب المقدس، ص: 38، 39.

(4) إسلام دية، الفيلولوجيا بين التأويل والتأويل، عرض موجز لمشروع فيلولوجيا المستقبل (الرابطة المحمدية للعلماء - مركز الدراسات القرآنية، مجلة التأويل، المغرب، 2014م)، العدد: 1، ص: 328.

(5) هي تلك التسمية التي تطلق على النص العبري القديم، لأن العهد القديم في صورته الحالية يقوم على التقاليد النصية المعروفة بالماسورا. Ernst Wurthwein, The Text of the old Testament, An Introduction to the Biblia Hebraica, translated by: Erroll F. Rhodes, Grand Rapids, Cambridge. Wm.B.Eerdmans publishing Co, 1995, p10

استخلاصه من النصوص التي بين أيدينا⁽¹⁾. وأهمية ذكر تلك المصطلحات تكمن في استعمالها -أو بعضها على الأقل- في الدراسات الاستشرافية لنصوص الوحي الإسلامي.

ومع الفلاسفة الرومانطيين الألمان في القرن التاسع عشر، وخصوصاً مع "شليغل" Schlegel، و"دلتاي" Dilthey و"شلايرمختر" Schleiermacher؛ بدأ التعامل مع الفيلولوجيا بوصفها تأويلاً عاماً للنصوص، أعاد النظر الفلسفي واللاهوتي مجدداً إلى دراسة النصوص القديمة، وكان الهدف من هذه النزعة التأويلية فهم مقاصد الكاتب والنص معاً، فتكون إعادة تركيب النص متأسسة على الربط التفسيري والنحوي والبلاغي بقواعد التاريخ والفلسفة⁽²⁾.

وبعد سنة 1920م، عانت الفيلولوجيا -لاسيماً في فرنسا- من منافسة اللسانيات الجديدة بكل تفريعاتها، وبالذات من البنيوية الرافضة للمنهج التاريخي الفيلولوجي، وقد صار مجال فعلها محدوداً، بدلاً من أن يتوسع، بحيث اقتصر على تأسيس نص ما، وكانت ثمرتها تكمن في إنجاز "نشرة نقدية" لهذا النص في غالب الأحيان، وليس خاف دور الطباعة في ترسيخ هذا المنتج الجديد.

بينما استمر في ألمانيا -خلال القرن العشرين- تقليد في التأويل الأدبي والثقافي يخص النصوص التراثية يستمد روحه ومنهجه من الفيلولوجيين الفلاسفة السالف ذكرهم، وقد قام هذا التأويل على اجتماع البحث الأدبي والأسلوبي والمقارن في الاشتغال على النصوص، ويمكن ذكر "إرنست كيرتيوس" Ernst Curtius و"ليو سبيتزر" Leo Spitzer و"إريك أوريخ" Eric Auerbach باعتبارهم ممثلين لهذه النزعة.

ومن منطلق الاستفادة من الدراسات ما بعد الكولونيالية؛ شرع الفيلولوجيون الجدد إلى التجديد في الفيلولوجيا نفسها من خلال إعادة النظر في مناهج الاشتغال على النصوص نظراً وعملاً، وذلك من خلال المساهمة في نقد الخطابات الثقافية الإقصائية وتشجيع البحث الفيلولوجي الإنساني المقارن، ويمكن حصر أهداف هذه الدعوة في أمور ثلاث:

1. تقويم الممارسات النصية textual practices خارج أوروبا وداخلها.
2. التجديد في مناهج قراءة النصوص القديمة ودراساتها.
3. فتح آفاق رحبة للبحث من خلال نقد الطروحات الثقافية والإقصائية -كالتمركز الأوروبي والاستعماري عموماً على ذاته- وإدراج الأصول الأدبية والثقافية من خارج المجال الأوروبي في إطار كوني عام.⁽³⁾

(1) إسلام دية، الفيلولوجيا بين التأويل والتأويل، ص: 328.

(2) المرجع نفسه، ص: 228-229.

(3) المرجع نفسه، ص: 330.

وفي سنة 1947م وضع البلجيكي S. Etienne كتابه، دفاع عن الفيلولوجيا، بين فيه أن الفيلولوجيا تعد الدراسة التي لا غنى للنص عنها في علاقته بالكاتب، وجرى نشر كثير من الأعمال الفيلولوجية في هذا القرن، كانت أساس المعارف التاريخية في مجال اللغات والآداب. لقد شملت الدراسات الفيلولوجية التأريخ للنص وفك رموزه والمقارنة بين الطبقات وترتيب الأخطاء وشرحها ورصد الإضافات المقحمة على النص، وتأسيس معايير التثبت من صحة النصوص، كل هذه العمليات تبلغ نهايتها ومنتهاها عند إعداد طبعة أو نشرة نقدية.⁽¹⁾

وهكذا عاد الاهتمام لعلم الفيلولوجيا بعد محاولات الفيلولوجيون الجدد من خلال الدعوة إلى التجديد في الفيلولوجيا نفسها، وذلك بتشجيع البحث الفيلولوجي الإنساني المقارن، ونقد المركزية الأوروبية في البحث وتقويم الممارسات النصية لتكون خارج أوروبا وداخلها، والتجديد في مناهج قراءة النصوص.

وبعد؛ فقد تبين كيف تطور المنهج الفيلولوجي، ويمكننا القول بأنه بدأ يتطور في أواخر عصر النهضة الأوروبية، وذلك حينما بدأت الدراسات النقدية تطول الكتاب المقدس؛ بدءاً من حركت الإصلاح الديني البروتستانتية، ومروراً بإنتاجات بعض الفلاسفة، كالفيلسوف الهولندي "باروخ سبينوزا"، وتطور بشكل أوضح حينما عرف الأوروبيون اللغة السنسكريتية، بعد مقال وليام جونز، والذي بدأت من خلاله فكرة المقارنة بين اللغات، فكان هذا الحدث هو طريق دخول الفيلولوجيا إلى شتى العلوم، واعتبارها ركناً لا غنى عنه في مجالات واسعة.

ثم أخذ قفزته الكبرى في التطور حينما توسعت الدراسات النقدية للكتاب المقدس وتفرع منها علوم بارزة، أهمها: "علم نقد العهد القديم" و"علم نقد العهد الجديد"، وكذلك عندما طبقت المدارس الاستشراقية ذات الأدوات الفيلولوجية في موضوع دراساتهم الاستشراقية على التراث الإسلامي.

وبعد أن تفرع عن الفيلولوجيا الكثير من العلوم الأخرى -كعلم المخطوطات، وعلم الوثائق القديمة، والفيلولوجيا المقارنة، وغيرها- عانت الفيلولوجيا من منافسات تلك العلوم الأخرى، وبدأ تطبيقها ينحسر خلال النصف الأول من القرن العشرين، ثم عاد تألقها مجدداً بعد محاولات "الفيلولوجيون الجدد"، حينما دعوا إلى التجديد في الفيلولوجيا نفسها من خلال إعادة النظر في مناهج الاشتغال على النصوص، ونقد الخطابات الثقافية الإقصائية وتشجيع البحث الفيلولوجي الإنساني المقارن.

(1) يوسف الكلام، تاريخ وعقائد الكتاب المقدس، ص: 38-39.

وأخيراً؛ من المهم عدم إغفال أصحاب الدراسات النقدية العلمانية في الكتاب المقدس وفي القرآن الكريم من الدور البارز الذي ساهم في تطور المنهج الفيلولوجي، وعدم حصر عوامل التطور في فكرة المقارنة بين اللغات وانبثاقها من أصل واحد، صحيح أنه عامل مهم، بل هو الأبرز، ولكن هناك أسباب أخرى، جميعها أدت إلى تطور وتآلق الفيلولوجيا في الفكر الغربي.

المبحث الثاني

التوظيف الاستشراقي للمنهج الفيلولوجي

المطلب الأول: من نقد نصوص الكتاب المقدس إلى دراسة نصوص الإسلام:

بعد توظيف المنهجية الفيلولوجية في دراسة نصوص العهدين القديم والجديد، والتعامل مع الفيلولوجيا بوصفها تأويلاً عاماً للنصوص؛ تطور عند المستشرقين ما يمكن تسميته بـ"نقد القرآن الكريم". والحقيقة أنه ليس كل المستشرقين المهتمين بالدراسات القرآنية قد طبقوا اتجاهات نقد الكتاب المقدس على القرآن الكريم، وذلك لصعوبة هذه الاتجاهات النقدية المتخصصة، وحاجة المتخصص فيها إلى التأهل في عدد من العلوم مثل معرفة اللغات والآداب السامية، ومعرفة العلوم الإنسانية والاجتماعية ومناهجها، ومعرفة اتجاهات نقد الكتاب المقدس.⁽¹⁾

ونظراً لهذه الصعوبات فقد انفراد عدد قليل من المستشرقين بالسيطرة العلمية والمنهجية على هذه الاتجاهات، وكونوا فريقاً خطيراً من المستشرقين تخصصوا في دراسة النص القرآني في ضوء علم نقد الكتاب المقدس، وبالضرورة جمع هؤلاء المستشرقون بين تخصصين أساسيين: التخصص في دراسات العهدين القديم والجديد، والتخصص في الدراسات الإسلامية، وعلى الأخص الدراسات القرآنية.

وكوّن هؤلاء المستشرقون مدرسة علمية استشراقية متخصصة في نقد القرآن الكريم من خلال استخدام مناهج نقد الكتاب المقدس، ويأتي على رأس هذه المدرسة مؤسس علم نقد الكتاب المقدس في الغرب المستشرق "يوليوس فلهاوزن" (1844-1918) الذي يمكن اعتباره في الوقت نفسه مؤسس "نقد القرآن الكريم". فقد جمع فلهاوزن بين التخصص في نقد العهد القديم، والتخصص في الإسلام والقرآن الكريم، وهو في الوقت نفسه مؤسس نظرية "تعدد مصادر التوراة"، والتي طبقت على كل أسفار العهد القديم والعهد الجديد.⁽²⁾ حيث تُظهر هذه النظرية أن كتب موسى الخمسة (سفر التكوين، سفر الخروج، سفر اللاويين، سفر العدد، وسفر التثنية)، وفقاً للتقليد اليهودي، قد ألهمتها موسى من قبل الله ليكتبها على الألواح. ومع ذلك، لم تكن هذه الكتب نتيجة لمصدر وحي واحد فقط، بل كانت تراكمًا تاريخيًا يشمل مصادر متعددة من الكتابات. وباستخدام المناهج النقدية الحديثة، وخاصة المنهج الفيلولوجي؛ تم اكتشاف أن النص التوراتي قد تم تدوينه على مراحل مختلفة.⁽³⁾ يؤكد ذلك المستشرق فلهاوزن، الذي رفض نظرية التأليف الموسوي للتوراة، الرفض الذي أصبح موضوع اتفاق بين النقاد خلال القرن الثامن عشر وما بعد. استنتج فلهاوزن من دراسة متوازنة لأحداث

(1) محمد خليفة حسن، دراسة القرآن عند المستشرقين في ضوء نقد الكتاب المقدس، ص: 6-7.

(2) المرجع السابق نفسه.

(3) محسن فتحي، المنهج الفيلولوجي عند المستشرقين من النقد الكتابي المتعالي إلى الإجراء التدخلي في الدراسات القرآنية، (مجلة الدراسات الاستشراقية، المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية العدد 34 ربيع 2023)، ص 52-53.

التوراة والتطورات في المفردات والاشتقاق اللغوية أن النص الموسوي قد خضع لعملية بناء تطويرية ممتدة عبر التاريخ.⁽¹⁾ في هذا السياق، يقوم فلهاوزن بتأسيس بحثه الفيلولوجي القائم على الوثائق عبر استفسار قد يظهر في البداية كسؤال طبيعي لأي شخص يطالع الكتاب المقدس للمرة الأولى. يلاحظ القارئ في تمهيد الكتاب أن النصوص التوراتية منسوبة إلى موسى كمصدر أو مؤلف لها، وأنها قد تمت المحافظة عليها بواسطة النساخ، لكن بموجب المنهج النقدي المعاصر؛ تم طرح الاستفسار مجدداً حول صحة نسبة هذه النصوص إلى مؤلفها، وفي هذا المجال؛ يرفض فلهاوزن فكرة أن التوراة كتبت بيد مؤلف واحد خلال فترة زمنية محددة.⁽²⁾

لم يقتصر الأمر على دراسة التوراة فحسب، بل امتد البحث الفيلولوجي ليشمل الأنجيل القانونية الأربعة ضمن سياقها التاريخي الخاص، حيث أظهرت الدراسات الفيلولوجية للأنجيل أن عملية التدوين لم تكن مطابقة تماماً لتعاليم المسيح عيسى عليه السلام، بل تدخل العنصر البشري في عملية التدوين، مما أدى إلى اختلافات في سرد الأحداث بين الأنجيل الأربعة. ركزت الدراسات الفيلولوجية على تحليل أصول هذه الاختلافات، وخلصت إلى أن ذلك يعود إلى عوامل متعددة:

- 1- تعدد المدونين: كتب كل مؤلف إنجيله بوجهة نظره الخاصة وربما أضاف أو حذف بعض التفاصيل.
- 2- تعدد المصادر: استقى كل مؤلف معلومات من مصادر مختلفة، مثل الروايات الشفهية أو الوثائق المكتوبة.
- 3- اختلاف أزمنة التدوين: كتبت الأنجيل في فترات زمنية مختلفة، مما قد يفسر اختلافات في بعض التفاصيل.⁽³⁾

إن هذه النتائج التي أصدرتها الدراسات الكتابية تؤكد للباحثين الغربيين أهمية الدراسات الفيلولوجية في إزالة القدسية عن النصوص الدينية مما يؤدي إلى فهمها بشكل أفضل، حيث تكشف عن التباينات والاختلافات الموجودة في النصوص، مما يسمح بدراسة أصولها وتحليلها بشكل نقدي. وعليه؛ فقد ظهر جيل جديد من المستشرقين الذين اعتمدوا المنهج الفيلولوجي ونظريات النقد كأساس لدراسة النص القرآني. وكان أول من اتبع هذا المنهج في الدراسات القرآنية هو المستشرق الألماني فلهاوزن والذي اعتمد التقسيم المرحلي الذي مرت به نصوص الكتاب المقدس، من خلال تحديد ثلاث مراحل زمنية رئيسية، ساهمت في نظره في تطور ونشأة النص المقدس.⁽⁴⁾

(1) محسن فتحي، المنهج الفيلولوجي عند المستشرقين من النقد الكتابي المتعالي إلى الإجراء التخلي في الدراسات القرآنية، ص: 53.
(2) المرجع نفسه.

(3) المرجع نفسه، ص 56 - 57. وموريس بوكاي، التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، ترجمة: حسن خالد، ط: 3، 1990، فهو نافع في هذا الباب.

(4) محسن فتحي، المنهج الفيلولوجي عند المستشرقين، ص 57.

وقد كان لأستاذه البارون دي ساسي de Sacy (1758م-1838م) الفضل عليه في تأسيسه وتعليمه حتى صنع منه عملاقاً من عمالقة علم نقد الكتاب المقدس، والذي انطلق منه ذلك التلميذ - فلهاوزن- حتى بلغ ما بلغ من التوسع في النقد الأعلى وانتقل منه إلى نقد القرآن الكريم باستعمال ذات المناهج التي استخدموها في نقد الكتاب المقدس.

يتضح مما سبق: أن توظيف الفيلولوجيا في الدراسات الاستشرافية قد مرّ بمراحل متعددة، حيث انتقل المستشرقون من نقد نصوص الكتاب المقدس إلى تطبيق المناهج النقدية، وعلى رأسها الفيلولوجيا، على النص القرآني. ورغم التحديات العلمية والمنهجية التي صاحبت هذا التحول، إلا أن بعض المستشرقين، وعلى رأسهم يوليوس فلهاوزن؛ تمكنوا من تشكيل تيار بحثي قائم على دراسة القرآن الكريم في ضوء المناهج النقدية المستخدمة في تحليل العهدين القديم والجديد.

وقد ساهم هذا الاتجاه في ترسيخ مدرسة استشرافية متخصصة في نقد النصوص الإسلامية، مستفيدة من نتائج الدراسات الفيلولوجية للنصوص الكتابية، لا سيما فيما يتعلق بتعدد المصادر، وتطور النصوص عبر الزمن، وتأثير العوامل التاريخية واللغوية في تشكيلها. وعلى هذا الأساس، أصبح المنهج الفيلولوجي أداة أساسية لدى عدد من المستشرقين الذين سعوا إلى دراسة القرآن الكريم من منظور نقدي مشابه لما طُبّق على النصوص التوراتية والإنجيلية، مما فتح باباً جديداً للنقاشات العلمية حول تاريخية النصوص المقدسة وتحليل أصولها.

ولما كانت الفيلولوجيا قد لعبت هذا الدور المحوري في دراسة النصوص الدينية، فقد تطورت بفضل جهود عدد من الشخصيات البارزة الذين أسهموا في ترسيخ منهجها وتوسيع نطاق استخدامها في الدراسات الدينية، ويقتضي البحث في تطور الفيلولوجيا إلقاء الضوء على أبرز هؤلاء العلماء الذين كان لهم تأثير واضح في توجيه الدراسات النقدية للنصوص المقدسة، وهو ما سيكون محور المطلب التالي.

المطلب الثاني: الشخصيات الرئيسية:

برزت الفيلولوجيا الاستشرافية من خلال عدة شخصيات لامعة في هذا المجال، وذلك بعد قيامهم بتوظيف أدوات الفيلولوجيا على دراساتهم الاستشرافية، ومن أبرزهم:

1- البارون دي ساسي de Sacy (1758م – 1838م):

مستشرق فرنسي، ومن عمالقة المستشرقين في زمانه، أستاذ العربية في مدرسة اللغات الشرقية، رئيس جامعة باريس، رئيس الجمعية الآسيوية، مدير مدرسة اللغات الشرقية، إمام المستشرقين في عصره، اهتم بالدراسات الشرقية، وتحقيق المخطوطات العربية، وتلخيص الكتب العربية، ودراسة اللغة العربية ومقابلتها بالفارسية والعبرية والتركية. واختلف العلماء من أوروبا قاطبة عليه، وأخذوا

عليه، ونظموا الاستشراق في بلدانهم على نمطه.⁽¹⁾ وعن طريق تلامذته انتقلت المنهجية الفيلولوجية ومنهجية النقد التاريخي إلى الألمان كما سنرى فيما بعد.

2- إيفالد H.Ewald (1803-1875):

التلميذ الأول للمستشرق "دي ساسي"، والذي أخذ عنه المنهجية الفيلولوجية والتاريخية النقدية، تخصص إيفالد في فيلولوجيا اللغة العربية على يد "دي ساسي"، أستاذاها في "جوتجن"، وأسس مع المستشرق "فلايشر" أسس دراسة اللغة العربية في ألمانيا، وأسس المدرسة النقدية في الدراسات الإسلامية، والتي كان من أشهر تلاميذها واشتهروا فيما بعد "تيودور نولدكه" ويوليوس فلهاوزن". واشتهر إيفالد أيضاً بتعمقه في اللاهوت البروتستانتي فجمع بين التخصص في فيلولوجيا اللغات السامية، ونقد العهد القديم واللاهوت.⁽²⁾

3- يوليوس فلهاوزن Julius Wellhausen (1844-1918):

مؤرخ لليهودية ولصدر الإسلام، وناقد للكتاب المقدس (العهد القديم)، ألماني مسيحي. درس على يد إيفالد (H.G.A. Ewal) الذي كان من أبرز العلماء المشتغلين باللغات السامية وينقد التوراة وذلك في جامعة جيتجن.

كان من ألمع الباحثين في نقد أسفار موسى الخمسة (التوراة)، وقد أخذ بالنظرية القائلة بأن التوراة تتألف من وثائق أقدم من تأليف التوراة، وتقسّم إلى ثلاث سلاسل (E1, Ea, J) وتطورت هذه النظرية على يد هوبفدل H.Hupfedl بالتمييز بين مصدرين: مصدر إلهوي، ومصدر يهواني (نسبة إلى أيهوا).

وطبق نظريات هيجل ومذهب التطور، فانتهى إلى أن المصدر اليهودي قد كتب في القرن

التاسع أو الثامن قبل الميلاد، وقد بقيت فيه آثار الشرك والتشبيه⁽³⁾.

ومن أشهر مؤلفاته الفيلولوجية الاستشراقية: كتاب: "أحزاب المعارضة السياسية والدينية في

صدر الإسلام" (1903)، وكتاب: "الدولة العربية وسقوطها" (1902)، وكتاب: "المدينة قبل الإسلام"

(1889)، وكتاب: "بقايا الوثنية العربية" (1887)، و"مقدمة إلى أقدم تاريخ الإسلام" (1899).

وقد استفاد كثيرا من تاريخ الطبري الذي كان مصدراً رئيساً في تقديمه تلك المؤلفات

الفيلولوجية عن الإسلام.⁽⁴⁾

(1) نجيب العقيلي، المستشرقون، ط: 3، (مصر، دار المعارف، 1964م)، ص: 179-182.

(2) المرجع نفسه، ص: 703.

(3) عبدالرحمن بدوي، موسوعة المستشرقين، ص: 408.

(4) المرجع نفسه، ص: 408-410.

4- تيودور نولدكه Theodor Noldeke (1836-1931):

يعد شيخ المستشرقين الألمان غير مدافع . وقد أتاح له نشاطه الدائب، واطلاعه الواسع على الآداب اليونانية، وإتقانه التام لثلاث من اللغات السامية: العربية، والسريانية، والعبرية، الظفر بمكانة عالية ليس فقط بين المستشرقين الألمان، بل بين المستشرقين جميعاً .
انكب على دراسة المخطوطات العربية والتركية، وانشغل أيضاً بمسائل النحو العربي، والنحو المقارن للغات السامية. وأثمر هذا الانشغال كتابين، هما: "في نحو العربية الفصحى" (1897)، و"أبحاث عن علم اللغات السامية" (1904).⁽¹⁾

صاحب الكتاب المشهور "تاريخ القرآن" (1860) والذي يتكون من ثلاثة أجزاء، حيث تناول بأجزائه الثلاثة مسألة نشوء نص القرآن وجمعه وروايته، كما ناقش مسألة التسلسل التاريخي للصور المكية والمدنية واقترح ترتيباً لها يختلف عن ترتيبها حسب نزولها. ويُعتبر هذا الكتاب أهم وأوسع ما صدر في القرن العشرين من كتب الاستشراق الفيلولوجي.⁽²⁾
هؤلاء هم أبرز الشخصيات التي كان لها دوراً بارزاً في تطور المنهج الفيلولوجي الاستشراقي، وتحديد هؤلاء لا يعني الحصر؛ وإنما تم ذكرهم لما كان لهم من الأثر الأبرز في الدراسات الفيلولوجية الاستشراقية، وقد ظفروا بنتائج على جانب من الخطر كبير، جلها لم تكن جديدة؛ وإنما هي ذات النتائج المحصلة من الدراسات الفيلولوجية على الكتاب المقدس أسقطت على دراسات التراث الإسلامي.

(1) عبدالرحمن بدوي، موسوعة المستشرقين، ص: 595-598.

(2) لمزيد من المعلومات عن تيودور نولدكه يمكن الرجوع لـ "المنهج الفيلولوجي في الدراسات القرآنية: تاريخ القرآن لنولدكه أنموذجاً، ص: 57 - 62 ضمن بحث د. محسن فتحي، "المنهج الفيلولوجي عند المستشرقين من النقد الكتابي المتعالي إلى الإجراء التدخل في الدراسات القرآنية".

المبحث الثالث:

اشكالات منهجية ومعرفية حول نهج التوظيف الاستشراقي للمنهج الفيلولوجي في دراسة النصوص الإسلامية.

يطرح هذا التوظيف عدة إشكالات منهجية ومعرفية، خصوصاً فيما يتعلق بمدى قدرته على الإحاطة ببنية هذه النصوص ودلالاتها في سياقها الديني والفكري. ففي هذا الإطار: سنسلط الضوء على أبرز أوجه القصور في هذا التوظيف:

1- تعميمهم نتائج نقد الكتاب المقدس وإسقاطها على القرآن الكريم:

عمّم المستشرقون نتائج نقد النصوص المقدسة في سياقهم الديني وأسقطوها على وحي الإسلام⁽¹⁾، وهو منهج يفتقر إلى الدقة العلمية، فلا يمكن بأي حال المساواة بين نص لم يحط بالتواتر، بل يفتقر إلى الإسناد الموثوق-نص الكتاب المقدس-؛ ونص آخر نقل إلينا بإسناد متواتر ثابت-القرآن الكريم-، فالكتاب المقدس خضع لتحولات كبرى ظهر فيها الكثير من الزيف والتحريف، والزيادة والنقصان، والتناقض في مضمونه وبين نُسَخه، فقد امتدت الفترة الفاصلة بين نزول الوحي على موسى عليه السلام في القرن الثالث عشر قبل الميلاد وتدوينه النهائي على يد عزرا الكاتب في منتصف القرن الخامس قبل الميلاد إلى ما يقرب من ثمانمائة عام، وخلال هذه المدة الطويلة؛ تحول الوحي التوراتي من نص مكتوب إلى روايات شفوية خضعت لاحقاً للتحريير والتدوين، وهو ما أتاح مجالاً واسعاً لعمليات التحريف والتغيير، سواء على المستوى الشفوي أو الكتابي.⁽²⁾ في حين أن النص القرآني تميز بتوثيق دقيق، في زمن الوحي وبعده، فيما أن الزمن بين وفاة الرسول ﷺ وجمع القرآن الكريم في مصحف واحد لم يتجاوز عامين. وبذلك؛ فإن تعميمهم نتائج دراسة نصوص الكتب المقدسة على القرآن الكريم إسقاط تعسفي، لا يمت للموضوعية بأي صلة.

2- تجاهل السياق الشفوي في نقل النصوص الإسلامية:

تعتمد الفيلولوجيا على دراسة تطور النصوص المكتوبة، لكنها تتجاهل أن القرآن الكريم نُقل شفوياً وحُفظ في الصدور قبل أن يُجمع لاحقاً، بينما اعتمدت نصوص الأديان الأخرى، كالمسيحية واليهودية، على مراحل تحرير متأخرة خضعت فيها للنقل الكتابي المتأخر، مما سمح بإمكانية التطور والتحوير. ومن ثم؛ فإن تطبيق المنهج الفيلولوجي على القرآن الكريم دون مراعاة هذا السياق الشفوي يعدّ قاصراً وغير دقيق.

(1) كيتودور نولدكه، في كتابه: تاريخ القرآن. وريجيس بلاشير، في كتابه: القرآن "نزوله، تدوينه، ترجمته، وتأثيره". وجولدسيهر، في كتابه: العقيدة والشريعة في الإسلام.

(2) زالمان شازار، تاريخ نقد العهد القديم من أقد العصور حتى العصر الحديث، ترجمة: أحمد محمد هويدي، تقديم ومراجعة: محمد خليفة حسن، (المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2000م)، ص: 21-25.

3- الفيلولوجيا الاستشراقية بين البحث في الامتداد التاريخي والتشكيك في الأصالة:

رغم أن الفيلولوجيا تُعد أداة علمية مفيدة في دراسة تطور اللغات والنصوص؛ فإن الدراسات الاستشراقية اتخذتها وسيلة لتفسير وتأويل النصوص الإسلامية -خاصة القرآن الكريم-، ضمن فرضيات مسبقة تنزع إلى نفي أصالته واستقلاليتها، فحاولوا تفسير المصطلحات القرآنية بردها إلى جذور سابقة في اللغات السامية أو في النصوص اليهودية والمسيحية⁽¹⁾، دون مراعاة خصوصية السياق القرآني ووحدته البنيوية، وطابعه الإلهي، ودون مراعاة امتلاك القرآن الكريم سمة التوثيق والإسناد التي أثبتت أصالته، وجعلته نصاً فريداً في تاريخ النصوص الدينية، وخضوع السنة النبوية لمنهج تمحيصي صارم منذ وقت مبكر، تمثل في علوم الحديث التي قامت بفرز الروايات وتنقيحها وفق معايير دقيقة، ما مكن من التمييز الواضح بين الصحيح والضعيف والموضوع.

وبناءً على ذلك، فالنصوص الإسلامية تم توثيقها وتدوينها والتثبت منها وفق آليات دقيقة منذ اللحظة الأولى، مما يجعل قراءتهما بمنهج الفيلولوجيا التقليدي قاصراً عن استيعاب طبيعتهما وخصوصيتهما. وعليه؛ فإن البحث الفيلولوجي الموضوعي يمكن أن يكون أداة معرفية نافعة إذا التزم الحياد العلمي ولم يُوظَّف لتبرير فرضيات جاهزة. أما حين يتحول إلى وسيلة لإثبات تصورات مسبقة، فإنه يفقد قيمته الأكاديمية ويصبح مجرد أداة لإعادة إنتاج قراءات أيديولوجية تهدف إلى التشكيك بدل الفهم.

4- الفيلولوجيا وأدوات البحث العلمي الحديث:

تتلاقى الفيلولوجيا مع مجموعة من الأدوات العلمية والتفسيرية التنويرية، مثل استخدامها لمنهج "التاريخية"⁽²⁾ في تفسير النصوص، الذي يعتمد على فهم النص من خلال سياقه المادي والتاريخي، في مقارنة تقضي بتفسير النص على أنه ناتج بشري تشكّل في بيئة ووقت معينين، مما يستبعد اعتباره نصاً ذا مصدر إلهي يتجاوز حدود الزمان والمكان⁽³⁾.

ومن خلال هذا المنهج -وغيره من المناهج التنويرية الحديثة-، يُنظر إلى النصوص الدينية -ومنها القرآن الكريم- على أنها جزء من التاريخ البشري، لا تخرج عن سياقاته المكانية والزمانية، وتطبيقها

(1) كجوزيف شاخ، في كتابه: تراث الإسلام. ومونتجمري وات، في كتابه: الإسلام والمسيحية في العالم المعاصر. وكارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية.

(2) "التاريخية Historisme" تعني: القول بأن الأمور الحاضرة ناشئة عن التطور التاريخي، ويطلق هذا اللفظ أيضاً على المذهب القائل أن اللغة، والحق، والأخلاق؛ ناشئة عن إبداع جماعي، لا شعوري، ولا إرادي، وإن هذه الأمور قد بلغت الآن نهايتها، وإنك لا تستطيع أن تبدل نتائجها بالقصد ولا أن تقههما على حقيقتها إلا بدراسة تاريخها. ويرى أصحاب هذا المذهب أيضاً أننا لا نستطيع أن نحكم على الأفكار والحوادث إلا بالنسبة إلى الوسط التاريخي الذي ظهرت فيه لا بالنسبة إلى قيمتها الذاتية لا غير، لأننا إذا نظرنا إليها من الناحية الذاتية فقط ربما وجدناها خاطئة أو منكرة، ولكننا إذا نسبناها إلى الوسط التاريخي الذي ظهرت فيه وجدناها طبيعية وضرورية. جميل صليبا، المعجم الفلسفي، (دار الكتب اللبناني، بيروت، 1982م)، (1/229).

(3) كجوزيف شاخ، في كتابه: تراث الإسلام. وجولدسبير، في كتابه: العقيدة والشرعية.

على النصوص الإسلامية يؤدي إلى اختزالها في سياقات بشرية ضيقة، مما يتجاهل بُعدها الغيبي، والمتجاوز للواقع المحسوس، وكونها جزءاً من رسالة إلهية خالدة.

5- الفيلولوجيا وتشكل الإسلام ونصوصه :

إذا كانت الأديان الوضعية كالمندوسية والبوذية، لم تصل إلى صورتها النهائية إلا بعد قرون طويلة من التطور والتغيير، والأديان الكتابية أيضاً استمرت في التطور العقدي والتشريعي والتنظيمي، بل واستمرت نصوصها المقدسة في التطوير والتصحيح لفترة زمنية طويلة جداً؛ فكيف يمكن للفيلولوجيا الاستشراقية أن تفترض أن الإسلام قد تشكل في مدة زمنية قصيرة لا تتجاوز ثلاثاً وعشرين سنة -وهي فترة نزول الوحي- واستقر كتابه في نصٍ محكم خلال هذا الزمن المحدود؟ إن هذا الافتراض يتجاهل الطبيعة الفريدة للإسلام، الذي جاء القرآن فيه نصاً متمسكاً منذ اللحظة الأولى، متجاوزاً أي سمات تدل على كونه نصاً بشرياً خاضعاً للتحويلات التدريجية التي شهدتها النصوص الدينية الأخرى، بل إن استقرار النص القرآني وثبات بنيته الدلالية والأسلوبية عبر مراحل نزوله المختلفة يشكل تحدياً حقيقياً لنظرية التطور التدريجي للنصوص الدينية، التي تتبناها الفيلولوجيا الاستشراقية.

وإذا كان من غير المنطقي أن يتكوّن دين بهذه السعة والشمولية، ويصدر عنه كتاب بهذه الدقة والإحكام في زمن وجيز؛ فإن الإشكالية تصبح أكبر حين ندرك أن هذا الدين جاء على يد رجل أمي، لم يكن معروفاً عنه الاشتغال بالكتابة أو التأليف. فكيف لرجل لا يقرأ ولا يكتب أن يقدم نصاً يفوق في بلاغته ودقته ونظمه كل ما عرفته العرب من أساليب لغوية، ويؤسس منظومة عقدية وتشريعية متكاملة في مدة قصيرة كهذه؟ إن هذه الحقيقة تضعف الأسس التي تقوم عليها المقاربات الفيلولوجية الاستشراقية، وتستدعي مراجعة جذرية لهذه الافتراضات حول نشأة الإسلام ونصوصه.

6- التشابه بين نصوص الإسلام والنصوص الكتابية السابقة دليل على ريبانية المصدر لا على الاقتباس :

إن التشابه القائم بين بعض المعتقدات والشرائع في الإسلام وما سبقها من ديانات سماوية ليس دليلاً على اقتباسه منها -كما صرح بذلك جمع من المستشرقين-⁽¹⁾، بل هو انعكاس لوحدة المصدر الإلهي الذي انبثقت منه هذه الرسائل عبر التاريخ، فقد جاءت الأديان السماوية جميعها بدعوة واحدة جوهرها التوحيد وعبادة الله عز وجل، وإن اختلفت الشرائع التفصيلية باختلاف الأزمنة والاحتياجات التشريعية لكل أمة.

(1) مثلاً: مونتجمري وات، الإسلام والمسيحية في العالم المعاصر، ص: 72، 87-88، 111. وكارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، ص: 38-39.

وبالتالي؛ فإن وجود عناصر مشتركة بين الإسلام والديانات السابقة لا يعني أنه تأثر بها، بل يؤكد على وحدة المصدر، وعلى الامتداد الطبيعي لرسالات الأنبياء السابقين، وأنه جاء مصححاً لما اعتراها من تحريف أو تبديل.

إن اختزال هذا التشابه في إطار الفرضيات الفيلولوجية الاستشراقية التي تبحث عن أصول غير وحيانية للإسلام يغفل حقيقة أن التشابه بين الرسالات الإلهية هو أمر طبيعي ومتوقع، لا لأنه ناتج عن تأثر لاحق، بل لأنه صادر عن مصدر واحد، هو الوحي الإلهي، الذي كان هدفه عبر العصور هداية البشرية إلى عبادة الله وتوحيده.

الخاتمة:

توصل الباحث في نهاية هذه الدراسة إلى النتائج التالية:

- الفيلولوجيا مصطلح غربي، لا توجد له أصول في الثقافة العربية، وهو يعتمد على مفاهيم نقدية ودراسات تاريخية لغوية نشأت في أوروبا.
- شهد المنهج الفيلولوجي تطوراً ملحوظاً بدأ بدراسة اللغات القديمة، وتطور بعد ذلك إلى استكشاف اللغات الهندية الأوروبية، وصولاً إلى تناول النصوص المقدسة. وفي مراحلها اللاحقة توسع هذا المنهج ليشمل دراسة الوثائق القديمة، وتحقيق المخطوطات، وتحليل النصوص الدينية، مما أدى إلى نشوء فروع علمية جديدة.
- تطور المنهج الفيلولوجي بعد ذلك ليشمل النصوص الإسلامية - وخاصة القرآن الكريم -، فنشأت مدرسة نقدية غربية خُصصت لدراسة القرآن الكريم باستخدام تقنيات نقدية مشابهة لتلك التي طُبقت على الكتاب المقدس، قامت بإسقاط ذات النتائج على نصوص الإسلام.
- لعبت شخصيات مثل "البارون دي ساسي" و"إيفالد" و"فلهاوزن" و"نولدكه" دوراً حاسماً في توظيف الفيلولوجيا في الدراسات الاستشراقية، حيث قاموا بتطوير طرق تحليل النصوص القديمة وتطبيقها على القرآن الكريم.
- عمم المستشرقون نتائج نقد النصوص المقدسة على نصوص الإسلام، متجاهلين أدوات تمحيصها الدقيقة، والسياق الشفوي في نقلها، ودون مراعاة خصوصيتها الإلهية. وبذلك يتضح قصور هذا المنهج وعدم صلاحيته لدراسة الإسلام ونصوصه.

التوصيات:

- ينبغي دراسة مفهوم الفيلولوجيا بشكل موسع لتوضيح اللبس وفصل الخلط بينه وبين مفهومي "فقه اللغة" و"علم اللغة"، حتى تتبين دلالاتها بشكل مستقل عن بعضها.
- ضرورة تكثيف الدراسة حول الأدوات والمناهج التي استخدمها المستشرقون لتفنيد إسقاطاتهم ومزاعمهم بشكل أدق ودحض الرؤى النقدية التي تسيء الفهم بالإسلام ونصوصه.

قائمة المراجع

المراجع العربية:

- 1- ابن فارس القزويني، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبدالسلام هارون، (دار الفكر، 1399هـ).
- 2- أبو منصور عبدالملك الثعالبي، فقه اللغة وأسرار العربية، تحقيق: يحيى مراد، ط: 1، (المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، 2009م).
- 3- أحمد رضا، معجم متن اللغة، (دار مكتبة الحياة، بيروت، 1377-1380هـ).
- 4- أحمد سمايلوفتش، فلسفة الاستشراق، ط: د، (دار الفكر العربي، القاهرة، 1998م).
- 5- أحمد مختار عبد الحميد، معجم اللغة العربية المعاصرة، (عالم الكتب، 2008م).
- 6- إسلام دية، الفيلولوجيا بين التأريخ والتأويل، عرض موجز لمشروع فيلولوجيا المستقبل (الرابطة المحمدية للعلماء - مركز الدراسات القرآنية، مجلة التأويل، المغرب، 2014م).
- 7- تمام حسان، الأصول دراسة إبستمولوجية للفكر اللغوي عند العرب "النحو، فقه اللغة، البلاغة"، ط: د، (أميرة للطباعة، القاهرة، 2000م).
- 8- جميل صليبا، المعجم الفلسفي، (دار الكتب اللبناني، بيروت، 1982م).
- 9- الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، تحقيق: صفوان الداودي، ط: 1، (دار القلم- الدار الشامية، دمشق-بيروت، 1412هـ).
- 10- رودى بارت، الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية، تحقيق: مصطفى ماهر، (المكتب القومي للترجمة، القاهرة، 2011م).
- 11- رياض حمد العُمري، مناهج المستشرقين ومواقفهم من النبي صلى الله عليه وسلم، ط: 1، (مركز تأصيل الدراسات والبحوث، جدة).
- 12- زالمان شازار، تاريخ نقد العهد القديم من أقدم العصور حتى العصر الحديث، ترجمة: أحمد محمد هويدي، تقديم ومراجعة: محمد خليفة حسن، (المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2000م).
- 13- ساسي سالم الحاج، نقد الخطاب الاستشراقي الظاهرة الاستشراقية وأثرها في الدراسات الإسلامية، ط: 1، (دار المدار الإسلامي، ليبيا، 2002م).
- 14- سلوى ناظم، الترجمة السبعينية للعهد القديم بين الواقع والأسطورة، ط: 1، (دار الآداب، القاهرة، 1988م).
- 15- شريف حامد سالم، نقد العهد القديم دراسة تطبيقية على سفري صموئيل الأول والثاني، ط: 1، (مكتبة مدبولي، القاهرة، 2011م).
- 16- عبدالرحمن بدوي، موسوعة المستشرقين، ط: 4، (المؤسسة العربية للنشر، بيروت، 2003م).
- 17- عبدالعزيز أحمد علام وعبدالله ربيع محمود، في فقه اللغة، ط: 1، (مكتبة الرشد، الرياض، 1425هـ).

- 18- عبدالله محمد النعيم، الاستشراق في السيرة النبوية، ط: 1، (المعهد العالمي للفكر الاسلامي، 1997م).
- 19- فرديناند دي سوسير، محاضرات في علم اللسان العام، ترجمة: عبدالقادر قنيني، (افريقيا الشرق، 1987م).
- 20- كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الاسلامية، ترجمة: نبيه أمين فارس، أمين البعلبكي، ط: 5، (دار العلم للملايين، بيروت، 1968م).
- 21- محسن فتحى، المنهج الفيلولوجي عند المستشرقين من النقد الكتابي المتعالي إلى الإجراء التدخلي في الدراسات القرآنية، (مجلة الدراسات الاستشراقية، المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية، 2023).
- 22- محمد خليفة حسن، دراسة القرآن عند المستشرقين في ضوء نقد الكتاب المقدس، ط: د.
- 23- محمود زقروق، الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، (دار المعارف، القاهرة، 1997م).
- 24- موريس بوكاي، التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، ترجمة: حسن خالد، ط: 3، 1990.
- 25- مونتجمري وات، محمد في المدينة، ترجمة: شعبان بركات، (المطبعة العصرية، بيروت).
- 26- الموسوعة الميسرة للأديان والمذاهب المعاصرة، إعداد الندوة العالمية للشباب المسلم، ط: 2، (1409 هـ، الرياض).
- 27- نجيب العقيلي، المستشرقون، ط: 3، (مصر، دار المعارف، 1964م).
- 28- يوسف الكلام، تاريخ وعقائد الكتاب المقدس بين إشكالية التقنين والتقيديس "دراسة في التاريخ النقدي للكتاب المقدس في الغرب المسيحي"، ط: 1، (صفحات للنشر، دمشق، 2009م).

المراجع الأجنبية:

- 1- Alan . G.Hauser and Duane F. Watson: A History of Biblical Interpretation , vol (1) wm.p.Eerdmans publishing 2003
- 2- Ernst Wurthwein , The Text of the old Testament , An Introduction to the Biblia Hebraica , translated by : Erroll F.Rhodes , Grand Rapids , Cambridge . Wm.B.Eerdmans publishing Co,1995
- 3- Websters New Collegiate Dictionary first printing 1973



مجلة الأندلس للعلوم الإنسانية والاجتماعية
مجلة دولية شهرية علمية محكمة
الترقيم الدولي الإلكتروني : ISSN : 2410- 521X
الترقيم الدولي الورقي : ISSN : 2410- 1818
البريد الإلكتروني : journal@andalusuniv.net

المجلة مفهرسة في المواقع الآتية :



2025	2024	2023	2022	2021	العام
0.5978	0.3068	0.3759	0.1954	0.2692	معامل أرسيف
1.81	1.55	1.25	1.73	1.60	معامل التأثير العربي